

# العمل الإيجابي البناء.. مركزية التربية الروحية وفاعليتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

د. محمد حلمي عبد الوهاب (\*)

"نعم، إنَّ لي - ولله الحمد - طريقاً سويّاً رفيعاً هو الإسلام، ولي منهل عظيم أنهل منه هو مشرب العجز والفقر إلى الله، وأقندي بقائد جليل هو سيّد المرسلين الرسول الكريم ﷺ، وأسترشدُ بمرشدٍ عظيم هو القرآن المبين، وأسلكُ مسلكاً قيماً يُبلّغني الولاية لله في دقيقة واحدة - كما هو لدى الجنديّ المرابط في الثغر-؛ فقد علّمني أستاذي - كما علّم كلّ ذي عقلٍ - أنَّ الزّمان زمانٌ إنقاذ الإيمان لا سلوك الطّريقة الصّوفيّة، فقال: أدّ حقّ الصّلاة خمسَ أوقاتٍ في اليوم، واعمل بالأذكار عقبها، واتّبِع السنّة الشّريفة، واجتنب الكبائر السّبع. فاستجبتُ بكلِّ ما أمليكَ من روح وقلبٍ" (١).

ليس من قبيل المصادفة أن يكون الدّرس الأخير، الذي ألقاه الأستاذ النورسي قبيل وفاته على طلبة النور، يحمل عنوان: "حول العمل الإيجابي البناء" (٢). فقد قضى صاحب الدّرس حياته كلّها في سبيل غاية كبرى تُعدُّ برأيه غاية الغايات؛ ألا وهي: "العمل الإيجابي البناء" في مقابل سعي الآخرين "للعمل السلبي الهدّام"! وكأنه بذلك يُشدّد على "مركزية" هذا المسعى باعتباره "الكلمة الأخيرة"، بعد أن أمّ رسالته التّربوية الرّوحية التّركوية على أكمل وجه (٣).

## (\*المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (بيروت - القاهرة).

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالح، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، ملحق بارالا، ص ٢٠ - ٢١. وتجدد الإشارة إلى أننا سنعوّل على هذه الطبعة الجامعة في كل ما يرد لاحقاً من مصادر للأستاذ النورسي.

(٢) الملاحق، ملحق أميرداغ - ٢، ص ٣٨٤ - ٣٩١.

(٣) وهو ما أكدّه في رسالته الأخيرة وشدد عليه بالقول: "إن واجبنا القيام بأعمال إيجابية بناءة وليست تخريبية سلبية، بل القيام بوظيفة الإيمان ابتغاء مرضاة الله وحده لا غير ومن دون التدخل في أمور

وضمن هذا المسلك تتوضَّح قواسم مُشتركة تُعدُّ بمثابة منظومةٍ للقيم العُلَيا التي يتعيَّن على "سالِك التُّور" أن يتغيَّها في نفسه وسلوكه؛ امتثالاً لمبادئ الدُّستور القرآنيِّ من ناحية، وتأسِّيًّا بنهج الشَّيخ/الأستاذ في التَّربية الرُّوحيةِ من ناحية أخرى. فمن جهةٍ أولى هناك الثبات على المبادئ، والوقوف ضدَّ كلِّ مظاهر التَّحكُّم والتَّسلُّط والاستبداد. ومن جهةٍ أخرى هناك التَّخلُّق بفضائل العفو، والرَّحمة، والتَّسامح؛ قياماً "بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرِّضى الإلهيِّ" أولاً؛ وأخذاً بعين الاعتبار "أنَّ المسألة الأساسيّة في هذا الرِّمان [إنَّما تتعلَّق] بالجهاد المعنويِّ، وإقامة السَّدِّ المنيع أمام التَّحريباتِ المعنويّة، وإعانة الأمن الدَّاخلي بكلِّ ما نملك من قوَّة؛ اتباعاً لدستور الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: جزء من الآية ١٦٤) <sup>(١)</sup> ثانياً.

وإذا كنا بصدد دراسة مفهوم "العمل الإيجابي البناء" في رسائل التُّور؛ فإنَّه يتعيَّن علينا أن نُقارب - من هذه الزاوية تحديداً - مسارَ ومسيرَة الأستاذ التُّورسي في حياته العمليّة؛ بوصفها تجلِّياً أمثل لتعيَّن وتَشكُّل هذا المفهوم/المبدأ في شخصه، وسلوكه، ومواقفه العمليّة التي رسمتْ للسَّالِكين سُبُل "التَّحليِّ" عن ضروب الأنانية، والطَّمع، وحبِّ النَّفس، كما رسمتْ لهم معالم "التَّحليِّ" بأخلاق التَّضحية، والتَّفاني، والإخلاص الحقيقيِّ لله عزَّ وجلَّ. لذلك، فسوف نركِّز في دراستنا هذه على مُقاربة موضوع "مركزيّة التَّربية الرُّوحية وفاعليّتها"، في فكر الأستاذ التُّورسي من خلال العناصر الثلاثة التَّالية:

أولاً: العمل الإيجابي البناء في مسيرة الأستاذ التُّورسي.

ثانياً: التَّربية الرُّوحية وآفاقها المعنويّة في رسائل التُّور.

ثالثاً: أخلاق التَّسامح والرَّحمة والإخلاص؛ بوصفها دستوراً نورانيّاً، وركائزَ إيمانيّةً، للعمل الإيجابي البناء.

العملُ - لا الأقوالُ - مرآةُ الفردِ - والأثرُ هو مقياسُ رُتبةِ الرِّجال <sup>(٢)</sup>

موكولة إليه تعالى. فنحن مكلفون أن نصمد صابرين على كل المضايقات لأجل إحلال النظام واستتباب الأمن في ربوع البلاد". الملاحق، ملحق أميرداغ - ٢، ص ٣٨٤.

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ - ٢، ص ٣٨٥.

(٢) بيت من الشعر للشاعر المرحوم ضيا باشا أورده الأستاذ إحسان قاسم الصالحي - مترجم كليات رسائل النور - في تقديمه لكتاب: سيرة ذاتية، ص ٤٥.

## أولاً: العمل الإيجابي البناء في مسيرة الأستاذ النورسي

يُعرّف الأستاذ النورسي مفهوم "العمل الإيجابي البناء" بأنه: "عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في علمه عداء الآخرين أو التّهوين من شأنهم؛ أي لا يشغل بهم أصلاً، بل عليه أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام - مهما كان نوعها- والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها، فيتفق معها، واتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومُرشدًا"<sup>(١)</sup>.

وهذا التحرر من رقّ الأعيار - بحسب لغة المتصوفة - ترجمه النورسي عملياً في حياته من خلال استغنائه التام عن الخلق بالخالق، وبعدهم انشغاله بالآخرين أو التعرض لهم، وبانكفائه على خدمة القرآن بوصفها أفضل عمل، "فاستغنى بكلّ موجوديته وسعة روجه وشخصيته عمّا سوى الله استغناءً تاماً، ولاذ إلى كنف رب العالمين واحتسب بسعة خزائن رحمته التي لا تعرف النفاذ، واتخذ الاستغناء - ليس عادة له فحسب؛ بل مشرباً ومسلماً ومذهباً ينتهجه عبر سني عمره -... واللافت للنظر أن هذا المسلك لم ينحصر في شخصه، بل انتقل إلى طلابه وأصبح مناهجهم وغايتهم المقدسة في الحياة"<sup>(٢)</sup>.

ومما له أكبر دلالة على أهمية مفهوم "العمل الإيجابي البناء" في فكر الأستاذ النورسي أنه أورده في سياق حديثه عن وسائل الظفر بالإخلاص، وجعله بمثابة النقطة - أو الوسيلة - الأولى من ضمن النقاط التسع التي تتضمن - إلى جانب ما سبق - كلاً من: "العلم بأنّ الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي... والحفاظ على الحق والعدل... وإنقاذ الحق من صولة الباطل... وترك غرور النفس وحفظها، وترك دواعي الحسد والمنافسة... فهذه النقاط التسع يُظفر بالإخلاص ويؤي الإنسان وظيفته حقّ الوفاء، ويؤديها على الوجه المطلوب"<sup>(٣)</sup>.

فالإيجابية في الحركة قاعدة إرشادية من قواعد رسائل النور "ترتكز على العلم، والمعرفة، والتبليغ، والإقناع، والود، والشفقة. وعلى طريق هذا النهج يلتقي ويتشارك المجددون كافة...

(١) اللغات، اللمعة العشرون، ص ٢٠٧.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٤٢.

(٣) اللغات، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

فالإمام الغزالي، والإمام الربايعي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرومي، وأمثالهم من العظام جميعاً، قد سلكوا الطريق نفسها، وكانت غايتهم المشتركة جميعاً جذب الناس نحو حدود مرضاة رب العالمين، وأن يكونوا وسيلة لسعادتهم الأبدية<sup>(١)</sup>.

وفي واقع الأمر فإنه ليس بمقدورنا أن نُقارب مفهوم "العمل الإيجابي البناء" في مسيرة النورسي: فكراً وحياءً، من دون أن نتوقف - ولو قليلاً - عند حدود الطابع العملي المميز الذي وسّم به كلاً من حياته وكتاباتة، وجعله بمثابة المعيار الذي نقيس به أثر كل قول أو عمل؛ وهو ما عبّر عنه بالقول: "من المعلوم أنّ دقيقة واحدة تكون ذات أهمية تقايل ساعة كاملة وأنها تُنمّر من النتائج ما تُنتجه تلك الساعة، وربما ما يُنتجه يوم كامل، بل قد تكون بمثابة سنين. ويحدث أحياناً أن تكون ساعة واحدة لها من الأهمية وتُعطي من النتائج ما لسنة من العمر؛ بل العمر كله"<sup>(٢)</sup>.

وإذا قمنا بتطبيق هذا المعيار على "رسائل النور" فسنجد أنها - وإن استغرقت وقتاً قصيراً بمقياس الزمن العام - إلا أنها تركت من الأثر ما يفوق الزمن الذي أُجِرت فيه، فحاربت اليأس بالأمل، وغرست بذور الإيجابية في كل قول أو عمل، وأعادت الروح إلى حياة المسلم المعاصر في زمن ترعّزت فيه قلاع الإيمان التقليدية، وتصدّعت فيه "القيم الروحية" أمام هجمات العصر، ونأى الإيمان عن الناس وتسرّ واحتجب، ففي عمق هذا "الظلام الروحي" انبثقت "رسائل النور" كيما تؤدّي هذه الوظيفة العظيمة، وتقوم بهذه المهمة الخطيرة؛ مهمّة "التركية والتربية الروحية" في ظلّ ظغيان المادّة، وفي أحلك الظروف وأشدها رهبةً، وفي أحوج الأوقات وأحرجها، فأثبتت "أعمق حقائق القرآن والإيمان وأخفاها ببراهين قوية، حتّى أصبح كل طالب نورٍ وفي صادقٍ يحمل في قلبه الإيمان التّحقيقي كأنه فُطّب مخفّياً من أقطاب الأولياء وركيزة معنوية للمؤمنين... يبعث مدداً معنوياً إلى قلوب أهل الإيمان فيبث فيهم وينفخ روح الحماس والشّجاعة"<sup>(٣)</sup>.

(١) علاء الدين باشار، العمل الإيجابي القاعدة الثابتة لعمر مديد، ضمن: تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبيدع الزمان سعيد النورسي، أعمال المؤتمر العالمي الثالث لبيدع الزمان سعيد النورسي الذي عقد في اتانبول في الفترة ٢٤ - ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٥.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٧.

(٣) سيرة ذاتية، ص ٧. وينقل النورسي نبوءة أحد الأولياء بشأن ذبوع رسائل النور فيقول: "سمعت من أحد الأولياء أنه قد استخرج من الإشارات الغيبية لأولياء سابقين ما أورثه القناعة بأن نورا سيظهر من جهة الشرق ويُبدد ظلمات البدع. ولقد انتظرت طويلاً ظهور مثل هذا النور، وما زلت منتظراً له.

وإلى جانب معيار الأثر الذي يزنُ به التُّورسي قيمة كلِّ عملٍ إيجابيٍّ بِنَاءٍ ثمَّة معيار آخر يتعلَّق في فهمه بكلِّ من مصطلحي "النَّفْع العام" و "المصلحة العامَّة". فمن أجل ذلك انسحب من عالم السِّياسة، مُوقِنًا أَنَّهُ "عالمٌ دينيٌّ مُكَلَّفٌ شرعًا بإفادَةِ النَّاسِ... لذا تخلَّيْتُ عن هذه الجهة وفضَّلْتُ عليها العملَ في خدمة الإيمان التي هي أَهمُّ خدمةٍ وألزمها وأسلمها، وقد تركتُ الباب مفتوحًا ليصل إلى الآخرين ما كسبته لنفسي من حقائق الإيمان، وما جرَّئته في نفسي من أدويةٍ معنويةٍ".<sup>(١)</sup>

لا يتوقَّف مفهوم "العمل الإيجابيِّ البِنَاء" في فهم التُّورسي إذن عند حدود "المعاملات" فحسب؛ وإِنَّمَا يتعدَّها أيضًا إلى فضاء "العبادات". وليس أدل على ذلك من ربطه العبقري ما بين "الدُّعاء" من جهة، وضرورة "الأخذ بالأسباب" من جهةٍ أخرى. فإذا كان الدُّعاء هو "مُخ العبادَةِ ورُوحها"، فإنَّه يكون على أنواعٍ ثلاثة:

**النوع الأول:** دعاءٌ بلسان الاستعداد والقابلية المودَّعة في الشَّيء. وثمرَّة دعاءٍ من هذا النوع - أي بلسان الاستعداد - هو عبارة عن "اجتماع الأسباب"، فاجتماع الأسباب دعاءٌ لإيجاد المسبَّب؛ أي أن الأسباب تتخذ وضعًا معينًا وحالةً خاصَّة بحيث تكون كلسان حالٍ يطلبُ المسبَّب من القدير ذي الجلال، فاجتماع الأسباب إذن إِنَّمَا هو نوعٌ من الدُّعاء.

**النوع الثاني:** الدُّعاء الذي يُسألُ بلسان "حاجة الفِطْرة"، فالكائنات الحيَّة جميعها تسألُ حاجتها الخارجة عن طوقها واختيارها من خالقها. وإغداقُ هذا "الإحسان" والإنعام ما هو إلا استجابةٌ لدعاءٍ فِطْرِيٍّ.

**النوع الثالث:** الدُّعاء الذي يسأله ذوو الشُّعور لتلبية حاجاتهم، ويكون على ضربين: فدعاءُ المضطرِّ مُستجابٌ، والدُّعاء الثاني المعروف: إما فِعْلِيٌّ أو قَوْلِيٌّ "فمثلاً حرثُ الأرض نوعٌ من الدُّعاء الفِعْلِيِّ؛ يطلب الإنسان الرِّزق من رازقه الحكيم، يطلبه منه لا من التُّراب، فالتُّراب بابٌ لخزينة رَحْمَتِهِ الواسعة ليس إلَّا، يطرقة الإنسان بالخرات"<sup>(٢)</sup>.

---

بيد أن الأزاهير تفتتح في الربيع فينبغي تحيئة السبل لمثل هذه الأزاهير المقدسة، وأدركنا أننا بخدمتنا هذه إِنَّمَا نمهد هذه السبل لأولئك الكرام النورانيين". المصدر نفسه، ص ١٤ - ١٥.

- (١) المكتوبات، المكتوب السادس عشر، ص ٨٠.  
(٢) قارن بما ورد بصفة خاصة في: المكتوبات، المكتوب الرابع والعشرون، الذيل الأول، ص ٣٦٣ - ٣٦٥.

ويُشدّد النورسي - ضمن هذا السّياق - على ضرورة "الأخذ بأسباب العمل الإيجابيّ" البناء " في ضوء ظروف العصر ومقتضياته، وأحوال العالم الحديث التي تزداد تردّيًا، فيقول: "إنّ الحياة البشرية ما هي إلا كركبٍ وقافلةٍ تمضي، وقد رأيتُ بنور القرآن الكريم في هذا الزّمان، أنّ طريق تلك القافلة الماضية أدت بهم إلى مُستنقِعِ آسنٍ، فالبشرية تتعثّر في سيرها فهي لا تكادُ تقوم حتّى تقع في أحوالٍ مُلوّثةٍ مُنْتَبِهَةٍ. لكنّ قسما منها يمضي في طريقٍ آمنٍ، وقسمٌ آخر قد وجد بعض الوسائل لتنجيه - قدر المستطاع - من الوَحْلِ والمستنقِعِ، وقسمٌ آخر - وهم الأغلبية - يَمْضُون في ظلامٍ دامسٍ في ذلك المُستنقِعِ الموحِلِ المُتَسَخِّحِ"<sup>(١)</sup>.

ثم يمضي الأستاذ في توزيع نسبِ كلِّ فريق منهم، فيقول: "فالعشرون في المئة من هؤلاء يُلطّخون وجوههم وأعينهم بذلك الوَحْلِ ظلًّا منهم أنّه المسكُ والعنبر... أمّا الثمانون في المئة، فهم يعلمون حقيقة المستنقع ويتحسّسون عفونته وقذارته إلا أنّهم حائرون، إذ يعجزون عن رؤية الطريق الآمنة!" وإزاء وضع كهذا يقترح النورسي علاجين رئيسين، أولهما: إيقافُ العشرين منهم المخمورين بالمطرقة. وثانيهما: إزاءة طريق الأمان والخلاص للحائرين؛ بإظهار النور لهم؛ أي بالإرشاد<sup>(٢)</sup>.

كما يستخدم مفهومًا مُقارِبًا لمفهوم "العمل الإيجابيّ البناء" في سياق تبريره الانسحاب من الحياة السياسية، والرّد على من اعتبر أنّ الاختلاف في السياسة هو من قبيل الرّحمة المشار إليها في الحديث النبويّ الشريف: «اختلافُ أمّتي رحمة» (شرح صحيح مسلم ٩١/١١). فيقول: "إنّ الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلافُ الإيجابيّ البناء، ومعناه: أنّ يسعى كلُّ واحد لترويج مسلكه وإظهار صحّة وجهته وصواب نظرته دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. أمّا الاختلافُ السّلبيّ فهو: محاولة كلِّ واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، وهذا النوع من الاختلاف مردودٌ أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأيّ عملٍ إيجابيّ بناءً"<sup>(٣)</sup>.

من جهة أخرى يربط الأستاذ النورسي فهمه للعمل الإيجابيّ البناء بحركة الوجود ككل؛

(١) المكتوبات، المكتوب الثالث عشر، ص ٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٣) المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون، ص ٣٢٦.

فيؤكد "أنَّ لأضخم الموجودات وأكثرها سعةً وشمولاً تسبيحاً خاصاً مُنْسَجِماً مع عظمتِهِ وكليته، إذ السَّمَاوَاتِ الشَّاسِعَةُ مُسَبِّحَةٌ لِلَّهِ، وكلماها التَّسْبِيحِيَّةُ هِيَ الشَّمْسُ وَالْأَقْمَارُ وَالنُّجُومُ... بمعنى أن لكلِّ شجرةٍ ولكلِّ نجم، تسبيحاته الخاصَّة به، مثلما أن للأرض برمتها تسبيحاتها الخاصَّة بها. فهي تسبيحاتٌ كليلَّة تضمُّ تسبيحات كلِّ جزءٍ وقطعةٍ منها؛ بل كلِّ وادٍ وجبلٍ وكلِّ بحرٍ وبرٍّ فيها... ثمَّ إنَّه سبحانه مع كبريائه المطلق، لا يدعُ أحقر الأشياء وأكثرها جزئيةً وحسنه خارج إتقانه! هذه الحقيقة القرآنية يشهد لها جريان الانتظام الأكمل في الموجودات وبسهولة مُطلقة"<sup>(١)</sup>.

وفي السِّياق ذاته أيضا يسوقُ مثالين لأجل بلوغ الاطمئنان القلبي؛ ردًّا على التَّساؤل الذي طرحه حول أساس الحكمة التي تُبني عليها الرُّوَجِرُ والتَّهْدِيدَاتِ وَالشُّكَاوَى القرآنية الصَّادِرة من عظمتِهِ الجليلَةِ تجاه هذا الإنسان الضَّعيف، وكيف يتم الانسجام والتوفيق بينهما؟! المثال الأول يتعلَّق بعاملٍ في بُسْتَانٍ مُكَلَّفٍ بفتح المنفذ الذي يجري منه الماء إلى البُستان لكنَّه "تكاسل عن أداء مهمَّته ولم يفتح المنفذ، فلم يجرَّ الماء. بمعنى أنه أحلَّ بكلِّ ما في البستان أو تسبَّب في جفافه"<sup>(٢)</sup>. فالعاملُ هنا كناية عن القلب الذي يتسرَّب منه النور الرِّبَائيُّ إلى بقية الرُّوح.

أمَّا المثال الثاني؛ فيتعلَّق بعاملٍ آخر في سفينة السُّلْطَانِ، ورغم أنَّ وظيفته بسيطة وجزئية إلا أن تركه لها سوف يؤدِّي إلى إخلال نتائج جميع العاملين بها وإهدارها. "ومن هنا غدا التَّخريب أسهل من التَّعمير دستوراً مُتعارفاً عليه لدى النَّاس. ولما كانت أُسس الكفر والضَّلَالِ والطُّغيان والمعصية؛ إنكاراً ورفضاً وتركاً للعمل وعدم قبول، فصورها الظَّاهريَّة مهمَّما بدتْ إيجابيّة وذات وجود، إلا أنَّها في حقيقتها انتفاءٌ وعدم... فهذه الأمور مثلما تُحُلُّ بنتائج أعمال الموجودات كافَّة، فإنَّها تُسَدِّدُ ستاراً أمام التَّحليلات الجمالية للأسماء الحسنى وتحجُّبها عن الأنظار"<sup>(٣)</sup>. ولا شكَّ أنَّ الإنسان يُماثل الكون في كونه جزءاً من العالم الأكبر، وكما أنَّ الكون برمته ينتظم في تراتبيَّة إلهيَّة تضمن له سيورة الحركة فكذلك الإنسان ذو "العمل الإيجابيِّ البناء"، حامل الأمانة، يؤدِّي دوره في الوجود بحسب ما كلف به من جهة، وبحسب

(١) الكلمات، ص ١٨٥-١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٣) نفسه، ص ١٨٩.

ما اشترطه على نفسه في حمل الأمانة من جهة أخرى<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: التَّربِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ وَآفَاقُهَا المَعْنَوِيَّةُ فِي رَسَائِلِ النُّورِ

لا شكَّ أنَّ الأستاذ الثُّورسي قد وجَّهَ جزءاً كبيراً من عِنايته إلى مسألة "التَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ"؛ أو بالأحرى "التَّركِيَّةِ"، كيف لا؟ وهي مفتاح الفهم لكلِّ عملية تربوية تعبياً لإخراج جيلٍ قرآنيٍّ ربانيٍّ يُساهم من خلال "العمل الإيجابيِّ البناء" في خلافة الأرض وعمارَتها، والقيام بمسؤوليات الأمانة الملقاة على عاتقه بحكم اختياره وحمله لها؟! "لقد وجد العارفُ بالله الأستاذ الثُّورسي الحقَّ والحقيقة منذ صغره، أيام لجوئه إلى المغارات للاستماع إلى أنين قلبه وآهاته، وإنابة روجه ومُناجاتها، حتى ذاق طعم الطَّاعة ورشف رحيق العبادة واستشَمَّ طيب التَّفكُّر، واستفاض في التَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ والنفسِيَّةِ فوصل إلى الطُّمأنينة والسَّكينة"<sup>(٢)</sup>.

وبفضل "التَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ" وما تضمنته من مجاهداتٍ تشبَّع الثُّورسي بالحقائق المكونة في القرآن حتَّى أنه وصف كتابه "الكلمات" بأنه كتابٌ "يبحثُ في علم الحقيقة؛ حقيقة الشريعة، حكمة القرآن الكريم"<sup>(٣)</sup> الحكمة التي كانت بالنسبة له دليلاً ومرشداً، فأعلن على رؤوس الأشهاد: "الأبرهِنَّنَ للعالم بأنَّ القرآن شمسٌ معنويَّةٌ لا يجبو سناها، ولا يمكن إطفاءُ

---

(١) يشدّد الأستاذ الثُّورسي على تأكيد انتظام الكون، والإنسان بالتالي، ضمن الإرادة الإلهية العامة، وهو يخاطب النفس بالقول: "ولا تظني نفسك سارحةً مفلتة الرِّمام، ذلك لأنك إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذه نظر الحكمة والرؤيَّة فلن تجدي شيئاً بلا نظام ولا غاية، فكيف تبقيين إذن وحدك بلا نظام ولا غاية؟! المصدر السابق، ص ١٩١.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٤١ (من تقديم الشاعر التركي علي علوي قوروجو).

(٣) الكلمات، ص ٥٤٧. وضمن هذا السياق يؤكد الشيخ ميزة أخرى في الطريق المختصر الذي اختطه للسالكين، تتعلّق بكونه "أسلم من غيره، لأنّه ليس للنفس فيه شطحات أو ادعاءات فوق طاقتها؛ إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، فيتجاوز حدّه". ص ٥٤٨. ولعلّ هذا الملمح كثير الشبّه بفلسفة ابن عطاء الله السكندري ومدرسة أبي الحسن الشاذلي الصوفيّة؛ خاصة في كتاب ابن عطاء الله "التنوير في إسقاط التدبير"، ذلك أنّ معنى التدبير الذي عناه صاحب التنوير هو تديُّرُ الدُّنيا للدُّنيا، أي أن يدبّر الإنسان في أسباب جمعها افتخاراً بها واستكثاراً، وكلّما ازداد فيها شيئاً ازداد غفلةً واغتراراً. أمّا تديُّرُ الدُّنيا للأخرة: كأن يدبّر الإنسان المتاجر والمكاسب، ليأكل منها حالاً ولينعم بها على ذوي الفاقة أفضلًا وليصون بها وجهه عن النَّاس إجمالاً؛ فذلك هو التدبير المحمود الذي يجبهه الله ورسوله.

نورها" (١).

وانطلاقاً من القرآن الكريم الذي حثَّ في الكثير من آياته على ضرورة التَّزكية، واتِّساقاً مع تركيز الأستاذ الثُّورسي على الجانب العمليِّ في التَّربية الرُّوحية، أكَّد بديع الزَّمان أنَّ الطَّرائق إلى الخالق عزَّ وجلَّ كثيرة ومتعدِّدة، لكنَّ مرادَّها جميعاً إلى القرآن الكريم، ويُتابع قائلاً: "وقد استفدتُ من فيض القرآن الكريم طريقاً قصيراً وسبيلاً سويماً هو: طريق العجز، الفقر، الشَّفقة، التَّفكُّر" (٢).

ويدلُّل الثُّورسي على طريقه المختصر للسَّالِّكين بمنطق الثَّنائيات فـ "العجزُ كالعشق طريقٌ مُوصِّلٌ إلى الله؛ بل أقرب وأسلم، إذ هو يُوصِّلُ إلى المحبوبة بطريق العبوديَّة. والفقر مثله يُوصِّلُ إلى اسم الله (الرَّحمن)، وكذلك الشَّفقة كالعشق مُوصِّلَةٌ إلى الله إلاَّ أنَّها أنفدُ منه في السَّير وأوسعُ منه مدى؛ إذ هي تُوصِّلُ إلى اسم الله (الرَّحيم). والتَّفكُّر أيضاً كالعشق إلاَّ أنَّه أغنى منه وأسطع نوراً وأرحب سبيلاً؛ إذ هو يُوصِّلُ السَّالِّك إلى اسم الله (الحكيم)" (٣).

لا يقتصر الأمرُ إذن على الاختصار فحسب؛ وإنما يتجاوزُه إلى شرف هذه المراحل الأربعة مقارنةً بمثيلاتها في مسالك الآخرين من جهة، وارتباط تحقُّقها في نفس السَّالِّك بالوقوف على أسرار وتجليات "أسماء الله الحسنى" من جهة أخرى. فإذا كانت طرق "الخفاء" ذات خطوات عشر - كاللطائف العشر - وإذا كانت طرق "الجهر" ذات خطوات سبع - بحسب النفوس السبعة - فإنَّ الطَّريق المختصر الذي اخطته الأستاذ الثُّورسي "عبارة عن أربع خطوات فحسب؛ وهو (حقيقةٌ شرعية) أكثر مما هو (طريقةٌ صوفية)... فالملقود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كلِّه أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام النَّاس" (٤).

(١) سيرة ذاتية، ص ٨٢.

(٢) الكلمات، ص ٥٤٥. وللتفكُّر قيمة كبرى في مسلك الثُّورسي بعد تحوُّله إلى "سعيد الجديد"؛ وهو ما يعبرُ عنه بالقول: "وعندما انقلب سعيد القاسم إلى سعيد الجديد، سالكاً مسلك التَّفكُّر، بحث عن سرِّ ((تفكُّر ساعةٍ خيرٍ من عبادةٍ سنة))، وفي كلِّ عام أو عامين كان ذلك السِّرُّ يغيِّر من شكله فينتج إمَّا رسالةً عربيَّةً أو رسالةً تركيَّة. وقد دامت تلك الحقيقة وهي تتلبَّس الأشكال المختلفة ابتداءً من رسالة (قطرة) العربية، وانتهاءً إلى رسالة (الآية الكبرى)، حتى أخذت شكلها الدائمي في (الحزب النوري)". سيرة ذاتية، ص ١٩٧.

(٣) الكلمات، ص ٥٤٥.

(٤) الموضوع نفسه. وقران أيضاً بما ورد في الكلمة الرابعة والعشرون، الغصن الثاني، ص ٣٧٧ - ٣٨٢.

وتأكيداً على "مركزية التزكية" في منهج الأستاذ النورسي التربوي العملي نراه يشدد - في أكثر من موضع - على ضرورة التزكية بوصفها تمثل المنبع الأول للطريق الصوفي الصحيح. يقول في ذلك: "أما منابع هذه الخطوات [الأربعة] من القرآن الكريم فهي: [١] ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢). تشير إلى الخطوة الأولى [العجز]. [٢] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩). تشير إلى الخطوة الثانية [الفرق]. [٣] ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩). تشير إلى الخطوة الثالثة [الشفقة]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨). تشير إلى الخطوة الرابعة [التفكر]"<sup>(١)</sup>.

أما وجوب عدم تزكية النفس - أي المبالغة في تعظيمها والافتخار بأعمالها وعدم رؤية تقصيرها - فذلك "لأنَّ الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته، مُجِبٌّ لنفسه بالذات، بل لا يحبُّ إلا ذاته في المقدمة. ويُضْحِي بكلِّ شيء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحا لا يليق إلا بالمعبود وحده... بل لا يقبلُ التَّقصيرَ لنفسه أصلاً، ويُدافع عنها دفاعاً قويا بما يُشبهه العبادة... فيصبيه وصف الآية الكريمة: ﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ (الفرقان: ٤٣، والجاتية: ٢٣)... فلا بدَّ إذن من تزكيتها. فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها"<sup>(٢)</sup>.

وكما أنَّ التزكية - بهذا المعنى - ضرورية في الخطوة الأولى؛ فإنَّها ضرورية وواجبة أيضاً في الخطوة الثانية المتعلقة بالفقر؛ "إذ مُقتضى النفس الأُمارة أنَّها تُدكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدَّة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتَّكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي العملُ بعكس هذه الحالة؛ أي عدم التَّسيان في عين التَّسيان؛ أي نسيانُ النفس في الحظوظ والأجرة، والتَّفكرُ فيها عند الخدمات والموت"<sup>(٣)</sup>. والأمر ذاته فيما يتعلَّق بالخطوة الثالثة "الشفقة"؛ "فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سرِّ هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ (الشمس: ٩)؛ وهي أن تعلم بأنَّ كمالها في عدم كمالها، وقُدْرَتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إليه"<sup>(١)</sup>.

(١) المصدر السابق، ص ٥٤٥-٥٤٦.

(٢) نفسه، ص ٥٤٦.

(٣) الموضوع نفسه.

(١) نفسه، ص ٥٤٧.

أخيراً يُشدّد النورسي على ضرورة وأهمية التزكية في الخطوة الرابعة [التفكير]؛ "فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة أنّ عدمها في وجودها ووجودها في عدمها؛ أي إذا رأت ذاتها وأعطت لوجودها وجوداً، فإنّها تغرق في ظلمات عدَم يسع الكائنات كلّها... كأنّها اليراعة في ضيائها الفرديّ الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقاً أنّها لا شيء بالذات؛ وإنما هي مرآة تعكس تجليات مُوجدها الحقيقي، فتظنّ بوجود غير متناهٍ، وتربح وجود جميع المخلوقات"<sup>(١)</sup>. أضف إلى ذلك أيضاً أنّ "مركزية التزكية الروحية" في فكر الأستاذ النورسي تتعلّق - في وجهة نظرنا - في عنصرين رئيسين؛ أولهما: بواعث التزكية. وثانيهما: سبُل وطرائق التزكية. ففيما يتعلّق بالعنصر الأوّل يُشدّد النورسي - في غير ما موضع من رسائل الثور - على ضرورة التزكية والحاجة الماسّة إلى التزكية الروحية، وذلك من خلال التركيز على مادّية العصر وكشف مظاهر التخلف التي أصابت الأمة، والتشديد على أنّ مردّد ذلك كلّهُ إنّما يعود إلى "تردّد في الأخلاق، وانحطاط في القيم"<sup>(٢)</sup>. وفيما يتعلّق بالعنصر الثاني "سبُل وطرائق التزكية"؛ يمكننا من خلال "رسائل النور" أن نلخصها في النقاط التّالية:

▪ **النّيّة الخالصة، والتجرّد من الدُّنيا، والعزوف عن حظوظ النّفس:** فالحقّ والحقيقة - بحسب النورسي - لا يُقيدان بشيء ولا ينحصران في مكانٍ ولا زمانٍ معيّنين، وكذلك الحقائق الإيمانية والأسس القرآنية "لا تُفحمان في المعاملات الدُّنيوية، ولا تُحصران في مؤسّسة رسمية يُودّي فيها العمل بالأجرة؛ بل إنّ تلك الأسرار والفيوضات - التي هي مؤهبة إلهيّة - لا تتأتّى إلّا بوساطة النّيّة الخالصة، والتجرّد من الدُّنيا، والعزوف عن حظوظ النّفس"<sup>(٣)</sup>.

▪ **تربيّة وتهذيب النّفس الأمانة بالسُّوء:** فأعظّم خطر يتهدّد الإيمان والمسلمين في هذا الزّمان "هو فسادُ القلوب وتزعزُع الإيمان، وإنّ العلاج الوحيد لإصلاح القلب وإنقاذ الإيمان إنّما هو النُّور وراءه النُّور"<sup>(١)</sup>. وهذا النُّور لا يحصل في القلب إلّا عن طريق

(١) الموضوع نفسه.

(٢) المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون، ص ٣٣٤.

(٣) المكتوبات، المكتوب السادس عشر، ص ٨٩ - ٩٠.

(١) اللّمعات، اللّعة السادسة عشرة، ص ١٤٢.

التَّهذِيبِ والتَّزْيِينِ، وهو ما يَضْرِبُ له الأَسْتَاذُ مَثَلًا بِوَاقِعَةٍ حَدِثَتْ له مع مَدِيرِ مَسْؤُولِ تناوله في غِيَابِهِ بِالتَّحْقِيرِ والإِهَانَةِ فَتَأَلَّمُ الأَسْتَاذُ لِدَلِكِ "ما يَقْرُبُ من سَاعَةِ بِأَحَاسِيسِ (سَعِيدِ القَلَمِ)، ثم قَلْتُ لِنَفْسِي: إِنْ كَانَ تَحْقِيرُهُ وما أوردُهُ من نِقَائِضِ تَخْصُ شَخْصِي ونَفْسِي بِالدَّاتِ، فَلْيَرَضَ اللهُ عَنْهُ إِذْ أَطْلَعَنِي عَلَى عِيُوبِ نَفْسِي. فَإِنْ كَانَ صَادِقًا، فَسَوْفَ يَسْتَوْفِي اعْتِرَاضَهُ إِلَى تَرْبِيَةِ نَفْسِي الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ وتَأْدِيبِهَا، فَهُوَ إِذْنِ يُعَاوَنِي فِي النِّجَاةِ مِنَ العُرُورِ. وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا، فَهُوَ عَوْنٌ لِي أَيْضًا لِلخِلَاصِ مِنَ الرِّبَاةِ، وَمِنَ الشُّهْرَةِ الكَاذِبَةِ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الرِّبَاةِ. نَعَمِ إِنَّنِي لَمْ أَصَاحِ نَفْسِي قَطُّ؛ لِأَنَّي لَمْ أَرَبِّهَا، فَإِنْ تَبَهَّنِي أَحَدٌ عَلَى وَجُودِ عَقْرٍ فِي أَيِّ جِزءٍ مِنْ جِسْمِي، عَلَيَّ أَنْ أَرْضَى عَنْهُ، لَا [أَنْ] أَمْتَعِضَ مِنْهُ"<sup>(١)</sup>.

■ **أَنْ تَسِيرَ أَعْمَالُ المَسْلَمِ وَفَقِ الدَّسَاتِيرِ السَّامِيَةِ:** فَلِكِي تَتَحَقَّقِ التَّزْيِينِ وَالتَّزْكِيَةَ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ دَسْتُورًا حَاكِمًا لَهَا حَتَّى لَا تَخْرُجَ عَنْ أَهْدَافِهَا "إِنْ لَمْ تَكُنْ تَصَرُّفَاتِ المُؤْمِنِ وَحَرَكَاتِهِ وَفَقِ الدَّسَاتِيرِ السَّامِيَةِ الَّتِي وَضَعَهَا الحَدِيثُ الشَّرِيفُ: «الْحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ» (مَسْنَدُ ابْنِ حَنْبَلٍ ١٤٦/٥)، وَالاِحْتِكَامُ إِلَى أَمْرِ اللهِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، فَالنَّفَاقُ وَالشَّقَاقُ يَسُودَانِ. نَعَمِ إِنَّ الَّذِي لَا يَسْتَهْدِي بِتِلْكَ الدَّسَاتِيرِ يَكُونُ مُعْتَرِفًا ظَلَمًا فِي الوَقْتِ الَّذِي يَرُومُ العَدَالَةَ"<sup>(٢)</sup>.

■ **المَدَاوِمَةُ عَلَى الإِخْلَاصِ فَهُوَ وَاسِطَةُ الخِلَاصِ:** يَقُولُ الأَسْتَاذُ مُشَدِّدًا عَلَى ضَرُورَةِ الإِخْلَاصِ "إِنَّ الإِخْلَاصَ وَاسِطَةُ الخِلَاصِ وَوَسِيلَةُ النِّجَاةِ مِنَ العَذَابِ، فَالعَدَاءُ وَالعِنَادُ يُزْعِرِعَانِ حَيَاةَ المُؤْمِنِ المَعْنُويَةَ فَتَتَأَدَّى سَلَامَةُ عِبُودِيَّتِهِ لِهَلَاكِتِهِ، إِذْ يَضِيغُ الإِخْلَاصُ! ذَلِكَ لِأَنَّ المَعَانِدَ الَّذِي يَنْحَازُ إِلَى رَأْيِهِ وَجَمَاعَتِهِ يَرُومُ التَّفَوُّقَ عَلَى خِصْمِهِ حَتَّى فِي أَعْمَالِ البِرِّ الَّتِي يُزَاوِلُهَا، فَلَا يُوفِّقُ تَوْفِيقًا كَامِلًا إِلَى عَمَلٍ خَالِصٍ لَوَجْهِ اللهِ. ثُمَّ إِنَّهُ لَا يُوفِّقُ أَيْضًا إِلَى العَدَالَةِ، إِذْ يُرَجِّحُ المَوَالِينَ لِرَأْيِهِ المَوَافِقِينَ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ وَمَعَامِلَاتِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَكَذَا يَضِيغُ أَسَاسَانِ مَهْمَانِ لِبِنَاءِ البِرِّ (الإِخْلَاصُ وَالعَدَالَةُ) بِالحِصَامِ وَالعَدَاءِ"<sup>(١)</sup>.

وَلِذَلِكَ أَشَادُ الأَسْتَاذَ - فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ الإِخْلَاصِ - بِشِيُوخِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ فِي

(١) المَكْتُوبَاتِ، المَكْتُوبِ السَّادِسِ عَشَرَ، ص ٨٢.

(٢) المَكْتُوبَاتِ، المَكْتُوبِ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ، ص ٣٢٧.

(١) المَكْتُوبَاتِ، المَكْتُوبِ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ، ص ٣٢٩.

اسبارة "فلا يبدو بين من فيها من المتقين والصالحين وأهل الطرق الصوفية والعلماء اختلاف مشوب بالحسد، حتى لو ظهر فهو أخف بكثير مما هو عليه في سائر المناطق. وعلى الرغم من أن المحبة الخالصة والاتفاق التام غير موجودين كما ينبغي؛ فإن الاختلاف المضر والحسد الممقوت مفقودان أيضا بالنسبة للمناطق الأخرى"<sup>(١)</sup>. وهو يُرد أسباب الاختلاف بين علماء الدين وأرباب الطرق الصوفية إلى سبعة أسباب؛ هي:

(١) أن اختلافهم غير نابع من فقدان الحقيقة، كما أن اتفاق أهل الغفلة ليس نابعًا من ركوبهم إلى الحقيقة؛ وإنما وظيفة أهل الدين وأصحاب العلم وأرباب الطرق الصوفية متوجهة إلى الجميع، وأجزئهم العاجلة غير متعينة ولا متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي وتوجه الناس إليهم والرضى عنهم لم يتخصص أيضا، ومن هنا تنشأ المزاومة والمنافسة.

(٢) أن اختلافهم نابع من عزيمتهم، على عكس اختلاف أهل الضلال النابع من ذلتهم.

(٣) أن اختلافهم ليس ناشئًا عن الوضاعة وفقدان الهمة؛ وإنما هو نابع من سوء استعمال علو الهمة.

(٤) أن اختلافهم ليس كائناً من عدم التفكير في مصيرهم، ولا من قصر نظرهم؛ وإنما هو ناتج عن عجز أهل الهداية عن الثبات على الاستقامة في السير.

(٥) أن اختلاف أهل الضلالة ليس نابعًا من ضعفهم؛ بل إن عدم اتفاق أهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة إلى القوة لما يمددهم به إيمانهم الكامل من مُرتكز قوي.

(٦) أن اختلاف أهل الحق ليس ناشئًا من فقدان الشهامة، ولا من انحطاط الهمة وانعدام الحمية؛ وإنما وجهوا نظرهم إلى ثواب الآخرة فتوزع ما لديهم من حمية إليه.

(٧) أن اختلافهم ليس ناشئًا من الغيرة فيما بينهم، ولا من الحرص على حطام الدنيا؛ بل لأنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة"<sup>(١)</sup>.

(١) اللمعات، اللمعة العشرون، (تحقق الإخلاص)، ص ٢٠٤.

(١) قارن بما ورد في اللمعة العشرين، ص ٢٠٥ - ٢١٨. وفي السياق ذاته يخصص الأستاذ اللمعة الحادية والشرين للحديث عن موانع الإخلاص، وقد أوصى بقراءتها كل خمسة عشر يوما على الأقل، وبدأها

■ **المجاهدات:** فالتأمل حياة الأستاذ النورسي يُلاحظ أنه قطع خلالها الطريق الشاق لأكثر من نصف قرن بجهاده المقدس قولاً وعملاً، وأنه اجتاز - بفضل مجاهداته - آلاف العوائق والأخطار التي كانت تنهض على طول الطريق. لقد كان النموذج الأمثل للآية القرآنية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). فكأنها بمثابة المرشد النوراني في تحليل شخصيته وسيرته.

فالإنسان - بحسب النورسي - مَلِيءٌ بالاستعدادات الفطرية الكامنة فيه، والتي تُوَهِّله لبلوغ أعلى المراتب والدَّرجات "ولكي تظَهَّر هذه الاستعدادات وتنبسط لا بدَّ لها من حركة، ولا بدَّ لها من تفاعل وتعامل. فحركة لولب الرُّتبي ونباض السمِّو في ذلك التَّعامل هي (المجاهدة). ولا تحصُل هذه (المجاهدة) إلا بوجود الشَّيَاطِين والأشياء المضرة، إذ لولا تلك (المجاهدة) لظَلَّت مرتبة الإنسان ثابتة كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الأصناف السامية من الناس" (١).

هذا وتنوع صور وأنماط "المجاهدات الرُّوحِيَّة" التي تهدف في جوهرها إلى تهذيب النَّفس: فمنها ما يدخل في باب "العبادات" - كالصلاة، والزكاة، والصيام -، ومنها ما

بوضع أربعة دساتير لأجل الظفر بالإخلاص، وللحفاظ عليه، ولدفع الموانع وإزالتها، وهي:

- ١- ابتغاء مرضاة الله في العمل.
- ٢- عدم انتقاد العاملين في الخدمة القرآنية وعدم إثارة نوازح الحسد.
- ٣- العلم بأن الإخلاص والحق هما مصدر القوة.
- ٤- الافتخار بمزايا الإخوان وتصورها في النفس وعدّ فضائلهم في الذات حيث يدعو إلى "الفناء في الإخوان" باعتباره دستوراً يناسب مسلكه ومنهجه على غرار "الفناء في الله أو الرسول أو الشيخ" عند الصوفية.

ثم يتحدّث عن ثلاثة موانع تخل بالإخلاص وتسوق إلى الرِّياء وتدفع إليه، وهي:

- ١- الحسد الناشئ من المنافع المادية، حيث يفسد الإخلاص تدريجياً، ويشوّه نتائج الأعمال.
- ٢- منح النفس الأمانة بالسوء الأسباب التي تداعب وتغدي أنانيتها، وما تستشرفه من منزلة ومكانة، فكما أن هذا داء رُوحِي وبيل، فهو باب إلى "الشرك الخفي" الذي هو الرِّياء والإعجاب بالنفس الماحق للإخلاص أيضاً.
- ٣- الخوف والطمع، على نحو ما بيّن في الدسيمة الثانية في القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين (المكتوبات، ص ٥٠٨ - ٥١٢). قارن بـ اللمعات، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢١٩ - ٢٢٩.

(١) اللمعات، اللمعة الثالثة عشرة، ص ٩٩ - ١٠٠.

يندرج ضمن "الأحوال والمقامات" - كالصبر، والرّضا، والشّكر -، ومنها ما يكون في دنيا "المعاملات" - كالصدق، والأمانة، والشّفقة على الخلق -، ومنها ما هو أدخلُ في باب "السّمات الشّخصية، أو تكوين الدّات" - كالاعتزاز بالنّفس، ورفض الظّلم، والثّبات على الحقّ -.

فإذا كانت أكثر الحِكَم المتمخّضة عن الصّيام تتوجّه إلى إظهار ربوبية الحقّ تبارك وتعالى، فإنّها "تتوجّه إلى حياة الإنسان الاجتماعية وإلى حياته الشّخصية، وتتوجّه أيضا إلى تربية النّفس وتركيتها، وإلى القيام بالشّكر تجاه النعم الإلهية"<sup>(١)</sup>. وبعد أن يأتي الأستاذ على ذكر الحِكَم الماثلة في الجانبين الأولين - إظهار الرّبوبية، وأثر الصّيام في الحياة الاجتماعية - يُعدّد الحِكَم المتمخّضة عن الصّيام في جانب تربية النّفس وتركيتها؛ فيقول: "إنّ صوم رمضان يحوي من جهة تربية النّفس البشرية حِكَمًا عدّة، إحداها أنّ النّفس بطبيعتها ترغب الانفلات من عقابها حرّة طليقة، وتتلقّى ذاتها هكذا. حتّى إنّها تطلب لنفسها ربوبية موهومة، وحركة طليقة كيفما تشاء، فهي لا تُريد أن تفكّر في كونها تنمو وتترعرع وتُربى بنعم إلهية لا حدّ لها، وبخاصة إذا كانت صاحبة ثروة واقتدارٍ في الدّنيا، والغفلة تُساندها وتعاونها... ولكن تبدأ نفس كلّ شخص بالتفطّن في ذاتها في رمضان المبارك، فتُدرك بأنّها ليست مالكة، بل هي مملوكة، وليست حرّة طليقة، بل هي عبدة مأمورة، فلا تستطيع أن تمدّد يدها إلى أدنى عمل من غير أمر، بل حتى لا تستطيع أن تمدّها إلى ماء، وبهذا ينكسر غرور ربوبيتها الموهومة، فتتقلّد ربة العبودية لله تعالى، وتدخل ضمن وظيفتها الأساس؛ وهي الشّكر"<sup>(٢)</sup>.

كما أنّ النّفس الإنسانيّة "تنسى ذاتها بالغفلة، ولا ترى ما في ماهيتها من عجزٍ غير محدودٍ، ومن فقرٍ لا يتناهى، ومن تقصيرات بالغة، بل لا تريد أن ترى هذه الأمور الكامنة في ماهيتها... ولكنّ صوم رمضان يُشعر أشدّ النَّاس غفلة وأعتاهم تمرّدًا بضعفهم وعجزهم وفقرهم، فبوساطة الجوع يفكّر كلّ منهم في نفسه... فيتدكّر ضعفه، ومدى حاجته إلى الرّحمة الإلهية ورأفتها، فيشعر في أعماقه توفّقًا إلى طرُق باب المغفرة الرّبانية بعجز كامل وفقر ظاهر مُتخلّيًا عن فرعنة النّفس، مُتهيئًا بذلك لطرُق باب الرّحمة الإلهية بيد الشّكر المعنوي؛ إن لم تُفسد الغفلة بصيرته"<sup>(١)</sup>.

■ التوكّل: يتأسّس التوكّل في رأي النورسي وفق قاعدةٍ جليّة توضحها الآية القرآنية

(١) المكتوبات، المكتوب التاسع والعشرون، ص ٤٨٥.

(٢) المكتوبات، ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

(١) المكتوبات، ص ٤٨٨.

الكريمة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَحْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣). إذ يدرك السالك بها أنه يستند "بهيوية الانتساب الإيماني" إلى سلطان عظيم ذي قدرة مُطلقة، بحيث يُجهز بانتظام تام في كل موسم ربيع على سطح الأرض جميع جيوش النباتات والحيوانات المتشكلة من أربع مئة ألف نوع من الأمم والطوائف بالأعتدة والأجهزة اللازمة لها... فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الإيماني، بمكنك إذن الاستناد والاعتماد على قوة عظيمة وقدرة مُطلقة. وحقًا لقد كنتُ أحسُّ بقوة معنوية هائلة كلما كنت أتلقَّى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أنني أملك من الاقتدار ما يُمكنني من أن أتحدى بها جميع أعدائي في العالم، وليس المائلين أمامي وحدهم" (١).

وحبّ الحصيد؛ إنَّ الطَّرِيقَ الذي ارتضاه النُّورسي ليعكس عن شخصيته المؤمنة الرَّاسخة في العلم بالكتاب والسُّنة، كما يكشف عن تمسُّكه بمنحَى التَّصوف السُّني؛ إنَّه "طريقٌ على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات على أنها مُسَخَّرَةٌ لفاطرها الجليل وخادمةٌ في سبيله، وأنها مظاهرٌ لتحليلات الأسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التَّحليلات... إنَّ هذا الطَّرِيقَ لا ينظر إلى الموجودات بالمعنى الإسمي؛ أي لا ينظر إليها [على اعتبار] أنها مُسَخَّرَةٌ لنفسِها ولذاتها، بل يعزِّها من هذا [التفوق على الذات] ويُقلِّدها وظيفةً أنها مُسَخَّرَةٌ لله سبحانه" (٢). وهذا المنحى يبدو واضحاً ضمن تضاعيف حياة النُّورسي نفسه، وفي مراحل تطوُّره الفكري على اختلافها، وبكفي أن نُطالع "رسائل النُّور" حتى نتبيّن أنه ليس ثمة "فارقٌ جوهرِيّ بين ما انتهجه بديع الزَّمان سعيد النُّورسي من الصِّراط النُّوراني والتَّصوف الحقيقي الذي لا شائبة فيه. فكلاهما يُؤدِّيان إلى رضاء الباري... وبناء عليه يستطيع أيٌّ من إخواننا المتصوِّفين الذين يستهدفون تلك الغاية النبيلة الأصيلة قراءة كُليّات رسائل النُّور... بل إنَّ رسائل النُّور قد وسَّعت دائرة مراقبة التَّصوف بالصِّراط القرآني، وأضافت إليها وظيفة التَّفكُّر بمثابة وِرْدٍ مُهمٍّ" (١).

وهذه المسحَّة الصُّوفية النُّورانيَّة لم تكن أبداً وليدة الصدفة؛ وإنما أسهم في تكوينها عدَّة عوامل رئيسة؛ في مقدِّمتها: الاستعدادُ النَّفسيُّ لبديع الزَّمان النُّورسي، ومحيطه العائليُّ المفعَّم بالرُّوح الصُّوفية، والبيئةُ السياسيَّةُ والثقافيَّةُ والاجتماعية وما اتَّسمت به من مُغالاة في النَّواحي

(١) الشعاعات، الشعاع الرابع، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) الكلمات، ص ٥٤٨.

(١) سيرة ذاتية، ص ٤٧ (من مقدمة المترجم).

المادّية. أمّا "الاستعدادُ النَّفْسِيُّ والقابليّةُ الرُّوحِيّةُ"؛ فكانا بسبب مُطالعتِه لكتب التصوف؛ حيث استوقفته عبارة وردت في كتاب "فتوح الغيب" للشيخ عبد القادر الكيلاني يقول فيها: "أنت في دار الحكمة، فاطلب طبيبًا يُداوي قلبك"!

ومن العجيب حقا أنّ الثُّورسي كان مُعيّنًا بالفعل في دار الحكمة الإسلاميّة بُعيد عودته من الأسر، فأخذ يقول: "ياللعجب! وكأّمّا جئتُ إليها لأداوي جروح الأُمّة الإسلاميّة، والحال أنّي كنتُ أشدُّ مرضًا وأحوج إلى العلاج من أي شخص آخر، فالأوّل للمريض أن يُداوي نفسه قبل أن يداوي الآخرين"<sup>(١)</sup>. وقد تردّد صدى الجملة الأخيرة في مناسبة أخرى حين اتهم الثُّورسي بالجنون وأودع المصحّة فلما جاءه الطبيب المعالج قال له: "إن كنت طبيبًا حاذقًا، فداو نفسك قبل أن تُداويني"<sup>(٢)</sup>.

والحال أنّه كان للشيخ عبد القادر الكيلاني التّأثير الأكبر على شخصية بديع الزّمان الثُّورسي؛ فعلى الرّغم من انتمائه إلى الطّريقة النّقشبندية عن طريق جهاتٍ ثلاثة (والديه وأستاذه)؛ إلا أنّه كان على خلافهم شديد التّأثر بالشيخ الكيلاني الذي أمده بدعائه وهيمته ألف مرّة<sup>(٣)</sup>. ويكفي للتّدليل على ذلك ما ذكره الثُّورسي - في سياق الحديث عن تنشئته الصّوفيّة - أنّه ما قرأ "أورادًا وأذكارًا طوال حياتي إلّا وأهديتها أولًا إلى حضرة الرّسول الأعظم (ﷺ) ثمّ إلى الشّيخ الجيلاني. وعلى الرّغم من أنني مُنْتسبٌ إلى الطّريقة النّقشبندية؛ فإنّ محبّة

(١) وقد تکرّر الأمر ذاته عندما طالع الثُّورسي كتاب "مكتوبات" للإمام الرّباني السّرهندي صادف عبارة "ميرزا بديع الزّمان": "فأحسستُ كأنّه يُخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي ميرزا، وكلتا الرّسالتين كانتا موحّهتين إلى ميرزا بديع الزّمان، فقلت: يا سبحان الله! إنّ هذا ليُخاطبني أنا بالذّات... والإمام الرّباني يُوصي مؤكّدًا في هاتين الرّسالتين: (وحدّ القبلة)؛ أي: اتّبِعْ إمامًا ومُرشدًا واحدًا ولا تشغَلْ بغيره!... وحينما كنتُ أتقلّب في هذه الحيرة الشّديدة، إذا بخاطرٍ رَحْمانيٍّ من الله سبحانه وتعالى يُخَطِر على قلبي ويهتف بي: إنّ بداية هذه الطّرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلّها، وشمس هذه الكواكب السّيّارة؛ إنّما هو القرآن الكريم... ومنذ ذلك اليوم أقبلتُ على القرآن واعتصمتُ به واستمددتُ منه".

(٢) سيرة ذاتية، ص ٩١.

(١) سيرة ذاتية، ص ٥٧. وإلى جانب هذه الكرامة هناك العديد من الكرامات المتمثلة في "الرؤيا الصالحة"؛ كتلك المتعلقة برؤية الشيخ محمد الكفروي، قدّس سرّه، يُخاطبه: "يا ملاّ سعيد تعالَ لزيارتني، فإنّي سأرحل"، وعندما انتبه من نومه سمع نداء النّعي في الصّباح يتصاعد من بيت الشّيخ. المصدر نفسه، ص ٧٨.

الطريقة القادرية ومشرها يجري في حكمه دون اختيارٍ مني، إلا أن الانشغال بالعلم كان يُعيق الانشغال بالطريقة"<sup>(١)</sup>.

ولهذا السبب أيضا تظهر شخصية الكيلاني في المنعطفات الكبرى لحياة بديع الزمان التورسي؛ إذ يأتيه الشيخ عبد القادر في المنام سنة ١٨٩٤م/١٣١١هـ ليأمره بالذهاب إلى رئيس عشيرة ميران مصطفى باشا بهدف دعوته إلى الهداية والرشاد، والإقلاع عن الظلم، وهو ما فعله التورسي بالفعل وكاد أن يتسبب في مقتله!<sup>(٢)</sup> وحين مرَّ بديع الزمان بأزمةٍ روحيةٍ حادةٍ سنة ١٣٣٩هـ، لم يجد سوى الاستنجاد بالشيخ عبد القادر الذي استمدَّ منه مددًا قويًّا جدًا: "فأمَدني بِهَمَّتِهِ وبكتابه "فتوح الغيب" حتَّى جاوزتُ ذلك القلق والاضطراب"<sup>(٣)</sup>. وعندما نَفَرَ من الحياة الاجتماعية في اسطنبول وعاد إلى قريته رغبةً في العزلة والانزواء قرأ قصيدةً "الأسماء الحسنى" للشيخ الكيلاني وكتب على غرارها مُناجاةً بعنوان: "هو الباقي"<sup>(٤)</sup>.

أمَّا منشؤه الصوفي في محيطه العائلي، فقد كان والده "الصوفي ميرزا" ورعًا يُضربُ به المثل، وكان يتحرَّى الحلال حتَّى أنه كان إذا ما عاد بمواشيه من المراعي شدَّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وعندما سُئِلت والدته: ما طريقتك في تربية أولادك حتى حازوا هذا الذكاء الخارق؟ أجابت: لم أفارق صلاة التهجُّد طوال حياتي إلا الأيام المعذورة شرعًا، ولم أُرْضِعْ أولادي إلا على ظهور ووضوء<sup>(١)</sup>. كما كان أخاه الملا عبد الله من خواصَّ الشيخ ضياء الدين "قدَّس الله سرَّه؛ وهو من الأولياء الصالحين"<sup>(٢)</sup>. وبالإضافة إلى كلِّ من والديه كان أستاذه أيضا متصوفاً على مشرب السادة النقشبندية<sup>(٣)</sup>، كما أن ابن أخيه عبد الرحمن

(١) سيرة ذاتية، ص ٥٧.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٧١ - ٧٤.

(٣) سيرة ذاتية، ص ١٨١.

(٤) قارن بما ورد في ص ١٩٤-١٩٥.

(١) سيرة ذاتية، ص ٥١.

(٢) قارن بالمحاورة الدقيقة التي جرت بينه وبين أخيه بخصوص شيخ الأخير ومظاهر بعض المغالاة في تقديسه، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) يتحدث التورسي عن إعجابه وتأثره الشديد بالدروس التي كان يلقاها الشيخ عبد الرحمن تاغي الملقب بـ "سيد" في ناحية إسباريت التابعة لقضاء خيزان، وهو يصف الجمع الذي كان يتلمذ على يديه آنذاك بالقول: "كنت أشعر بينهم أيضا ضمن تلك المناظرات العالية والهمة العالية والدائرة

أغانتُهُ هِمَّةُ القرآن ومدده، وأدَّت "رسالة الحشر" دورها في تطهيره من لوثاتٍ معنوية وكدورات الأوهام والشبهات والغفلة، فارتفع إلى ما يُشبه مرتبة الولاية، وأظهر للنورسي ثلاث كراماتٍ في رسالته التي كتبها إليه قبل وفاته<sup>(١)</sup>. أيضًا يُعدُّ النورسي نفسه ابنًا معنويًّا للإمام عليٍّ - كرم الله وجهه -، حيث يقول: "وتلقيتُ درسَ الحقيقة منه"<sup>(٢)</sup>.

كما أنَّ في سيرة النورسي لمحات عديدة متفرقة حول استماعه لمناقب الأولياء وهو بعُد صغير لم يتجاوز سنَّ العاشرة<sup>(٣)</sup>، إلى جانب التزامه الصمت أغلب الوقت وملازمته ضريح الشيخ أحمد الخاني؛ سالكا مسلك الزُّهاد<sup>(٤)</sup>، وتزييه بزِّي الدراويش<sup>(٥)</sup> وقطع الجبال الوعرة والغابات الكثيفة، ومزاولة الرِّياضة الرُّوحية وممارسة التَّزهد حتى هزل جسمه ونحل؛ إذ كان يكتفي بقطعةٍ من الخبز طوال ثلاثة أيام<sup>(١)</sup>.

كما كانت له قدمٌ راسخة في مُحاسبة النَّفس والمجاهدة، فلم يُحقِّق رغبات نفسه

الواسعة العلمية والصوفية، كأن أولئك العلماء سيفتحون الأرض كلها. فكنت أستمع - وأنا لم أتجاوز العاشرة من عمري - إلى مناقب العلماء القدامى المشهورين والأولياء العظام والسادة الأقطاب، ويرد إلى قلبي: أن هؤلاء الطلاب العلماء سيفتحون آفاقا عظيمة في العلم والدين... وكان بين شيوخ الطرق الصوفية وضمن دائرتهم في ناحيتنا وقضائنا وولايتنا مسابقة [في المناظرات العلمية] تثير الحيرة... فإن شئت فاذهب بخيالك إلى مجلس "سيدا" قدس سرّه في قرية نورشين، وما أظهرت من المدينة الإسلامية بصحبته القدسية، ترّ فيها ملوكا في زيِّ الفقراء، وملائكة في زيِّ الأناسي".

سيرة ذاتية، ص ٥٨-٥٩.

(١) المکتوبات، المکتوب الثامن والعشرون، المسألة الثالثة، النقطة الخامسة، ص ٤٣٣.

(٢) سيرة ذاتية، ص ٥٦.

(٣) سيرة ذاتية، ص ٥٨.

(٤) سيرة ذاتية، ص ٦٣.

(٥) يذكر النورسي أنه كان في بتليس عندما توجه إلى الشيخ محمد أمين أفندي، وكلفه الشيخ أن يلبس زي العلماء "الجبّة" ويدع زي "الدراويش"، ولكنه ردّ تكليفه قائلا: "إنني لم أبلغ بعد الحلم، فلا أجدني لائقا بلبس ملابس العلماء، وكيف أكون عالما وأنا ما زلتُ صبيا". سيرة ذاتية، ص ٦٤.

(١) المصدر السابق، ص ٦٣. ومن مظاهر تزهده أيضا أنه بعد عودته من الأسر سنة ١٩١٨م عُين في دار الحكمة الإسلامية حوالي ثلاث سنوات دون رضاه "فما كان يأخذ من المرتب المخصّص له سوى ما يقيم أوده، وعندما يُستفسر عن سبب ذلك كان يقول: أريد أن أعيش كالسواد الأعظم، فهم يتداركون معيشتهم بهذا القدر من المبلغ، ولا أريد أن أتبع الأقلية المسرفة". نفسه، ص ١٥٢-١٥٣.

وحظوظها "حتى أنه ما كان يأكل إلا ما يسدُّ الرَّمق، ولا ينام إلا قليلا، ويقضي الليل في عبادةٍ خاشعة تلفت الأنظار، وكان هذا دأبه مهما تبدلت المواسم" (١).  
 ونتيجة لذلك كله "بدأ الناس يوقرونه كتوقيرهم لوليٍّ من الصَّالحين" (٢). وبما أن حصول الكرامة من مظاهر تحمُّق الولاية فسرعان ما نالها فيما عُرف بـ "كرامة الصَّلَاة" حيث رفض الجنودُ فكَّ قيده ليؤدِّي الصَّلَاة "ففكَّهما بيُسْرٍ كمن يفكُّ منديلا"، فقال الجنود، متوسِّلين راجين: "كنَّا حُرَّاسك إلى الآن، أمَّا بعد الآن فنحن حُدَّامك!" وحينما كان يُسأل: كيف انخلت القيود؟ كان يكتفي بالقول: وأنا كذلك لا أعلم، إنَّ هي إلا كرامة الصَّلَاة ليس إلا! (٣) ولعلَّ ذلك كان سببا قويا في اكتسابه تلك القُدرة الفريدة المتعلقة بتحويل "المحن" العديدة التي مرَّ بها إبَّان مختلف أطوار حياته إلى "منح" إلهية، وصولا إلى تحوُّله هو شخصيا من "سعيد القديم" إلى "سعيد الجديد"، وما رافق ذلك من منطوق الثنائيات الحاكم لمسار حياته:

- فمن مهمَّة إنقاذ الخلافة إلى مهمَّة إنقاذ الإيمان (٤).
- ومن مسلك الرُّهد إلى خدمة القرآن (٥).
- ومن الصَّحوة الروحية بعد الوقوع في الأسر إلى انزوائه في تلٍّ يُوشعُ وتحوُّله إلى "سعيد الجديد" (١) بانكشافٍ روحانيٍّ وانقلابٍ قلبيٍّ وفكريٍّ (٢).
- ومن مسلك التَّفكُّر والتَّأمُّل إلى ثلاثية: العجز، والفقر، والشَّفقة (٣).
- ومن مخايل التُّبوغ في عهد الصِّبا وتلقُّبه ببديع الزَّمان إلى حصول الانقلاب الفكريِّ

(١) سيرة ذاتية، ص ١٦ (من تقديم السيد مصطفى صونغور).

(٢) سيرة ذاتية، ص ٦٨.

(٣) سيرة ذاتية، ص ٧٥.

(٤) قارن بما ورد في سيرة ذاتية، ص ٩٤ - ٩٧، ١٦٩.

(٥) قارن بـ سيرة ذاتية، ص ٨٣.

(١) يذكر النورسي ثلاث حكايات تشبيهية بشأن تحوله إلى "سعيد الجديد"، قارن بما ورد في: الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٦٠ - ٣٦٦. وأيضا سيرة ذاتية، ص ١٩٥ - ١٩٧.

(٢) قارن بما ورد في سيرة ذاتية، ص ٣١، ١٤٦ - ١٥١، ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) قارن بما ورد في ص ١٦٩.

وأنهامة بالجنون وإيداعه مستشفى المجانين<sup>(١)</sup>.

- ومن الاشتغال بالعلوم العقلية "الكسبية" إلى حصول المعرفة الإلهية "اللذنية"<sup>(٢)</sup>.
- ومن الظلام الروحي الناتج عن الاشتغال بالفلسفة إلى تحقُّق الاستنارة عن طريق القرآن وإزالة العوائق عن طريق القلب<sup>(٣)</sup>، ورحلة النَّفس في البحث والتَّحري عن أذواقٍ معنوية بدلا عمَّا افْتُنَّتْ به من أذواقٍ<sup>(٤)</sup>.

والحال أنه يُمكننا اختصارُ مراحل السَّير والطلب نحو "سعيد الجديد" - فيما يتعلق

بموضوعنا - في النقاط الأربع التالية:

- (١) التَّخلُّص من أسقام الاشتغال بالفلسفة.
  - (٢) الإقرار بأنَّ القرآن هو الأستاذ الحقيقي.
  - (٣) الاقتداء ببعض عظماء أهل الحقيقة انتهاءً بالجمع بين الطَّريقة والحقيقة ببركة فيض القرآن الكريم وإرشاده.
  - (٤) الإيمان بفعالية دوره في الوعظ والإرشاد وخدمة الإيمان، وأنه "عالمٌ ديني"، مكلفٌ شرعًا بإفادة الناس<sup>(٥)</sup>.
  - (٥) قَطْع المقامات على طريقة الإمام الغزالي، والإمام الرِّباني<sup>(١)</sup>، وجلال الدِّين الرُّومي "ساعيا بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب... فبادرَ إلى ضماد جراحاتِ قلبه وروحه، وخلص نفسه من الوسوس والأوهام، وبِحَلَّاصِهِ منها انقلَبَ سعيدُ القديمِ إلى سعيدِ الجديد"<sup>(٢)</sup>.
- يقول النُّورسي مُعبِّرًا عن حاله الجديد، وما لازمه فيه من ثلاثية: العناية الأزليَّة، والهداية

(١) قارن بما ورد في ص ٥٦، ٨١، ٨٦-٩١.

(٢) قارن بما ورد في ص ٨٥، ٨٨.

(٣) قارن بما ورد في ص ١٧٠ - ١٧٢.

(٤) قارن بما ورد في ص ١٩٢.

(٥) المكتوبات، المكتوب السادس عشر، ص ٨٠.

(١) أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤هـ)، الملقب بمجدد الألف الثاني. برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والإخلاص لله وحضور القلب. له مؤلفات عديدة أشهرها "مكتوبات" ترجمها إلى اللغة العربية محمد مراد في مجلدين. اللغات، ص ٥٥٧.

(٢) قارن بصورة خاصة ما ورد في الصفحات ١٨٩ - ١٩١.

القرآنيّة، وغوث الرّحمة الإلهيّة: "إنيّ قد ساقني القدرُ الإلهيُّ إلى طريقٍ عجيب، صادفتُ في سيري فيه مهالكٌ ومصائبٌ وأعداءَ هائلةً، فاضطربتُ، فالتجأتُ بعجزِي إلى ربِّي فأخذتُ العنايةَ الأزليّةَ بيدي، وعلمني القرآنُ رُشدي، وأغاثتني الرّحمةُ فخلّصتني من تلك المهالك" (١).

ثالثاً: أخلاق التّسامح والرّحمة والإخلاص؛ بوصفها دستوراً نورانياً، وركائز

### إيمانيّة، للعمل الإيجابي البناء

يرتبط مفهوم "العمل الإيجابي البناء" في حياة بديع الزّمان بعلامة مميزة لهذا المنحى في مختلف أطوارها وتقلباتها العديدة. وهذه العلامة التي نُلمح إليها تتعلّق بقدرة الإنسان الإيجابي على تحويل "المحن" إلى "منح" عن طريق خلق "الرّحمة". ولعلّ أبلغ مثال على ذلك هو نموذج حرمانه المبكّر من أمّه - منذ أن كان في التاسعة من عمره -، ومن مشاهدة أخواته الثلاث - منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره -، ومن الأولاد - حيث قضى حياته أعزباً فلم ينجب -؛ فقد حوّل الشّيخ بفضل طاقته الإيجابية كلّ هذا الحرمان إلى نقيضه تماماً؛ وهو ما عبّر عنه بالقول: "فبتُّ محروماً من كثير من أطاف الرّحمة والاحترام التي تشيع في أجواء الجلّسات الأخوية الطيبة اللذيذة في الدّنيا... ومن السُّرور المنبثق من الأخوة الودودة والشّفقة العظوفة في مُجالسة أولئك الأعرّاء المتّقين العلماء [إخوته]... ومن مذاقات محبّتهم [الأبناء] البريئة ومن ابتهاجهم وانسراحهم. ومع كلّ هذا ما كنتُ أشعرُ بهذا النقص قطّ، حيث أنعم سبحانه وتعالى عليّ في هذا اليوم معنيّ في مُنتهى الدّوق واللذة فضمّد جراحاتي الأربعة المذكورة من جهاتٍ ثلاث (١):

**[الأولى]:** أنه عوّضاً عن اللذة الآتية من العطف الخاصّ لوالديّ، أحسن الرّحيم سبحانه وتعالى عليّ ألوفاً من الودادات اللائي يستفدنّ من "رسائل النور" استفادةً تفوق المعتاد، ويتذوقن منها أذواقاً رويّةً خالصة.

**[الثانية]:** وعوّضاً عن السُّرور والبهجة والعطف الأخويّ النَّاشيء من مُجالسة أخواتي الثلاث - رحمهنّ الله - أحسن المولى الكريم عليّ بالألوف من السيّدات والشابّات، وجعلهنّ في موضع أخواتٍ لي، فأستفيد من دعواتهنّ وتعلّقهنّ بـ "رسائل النور" ألوفاً من الفوائد

(١) ص ١٩١.

(١) هكذا ورد في الأصل لكنه في الحقيقة عدّ أربعة جهات على نحو ما يبدو هنا.

والثمرات المعنوية والمسرات الروحية.

**[الثالثة]:** وعوضًا عن حرمانى من العون المادى والمعنوى الذي كان يمدني به في الدنيا أخوأي المرحومان، ومن عطفهما ورأفتهما، فقد أحسن سبحانه وتعالى برحمته علي بمئات الألوف من إخوة حقيقيين مضمحين في خدمة "رسائل النور" يحملون عطفًا خالصًا، ويمدون إلي يد العون؛ بل يفدون رأسمال حياتهم الدنيوية.

**[الرابعة]:** وعوضًا عن حرمانى من أذواق العطف والحنان التابعة من الأولاد - حيث لا أولاد لي في الدنيا- أنعم سبحانه وتعالى علي بمئات الألوف من الأولاد الأبرياء من حيث استفادتهم من "رسائل النور" مستقبلاً، فحوّل سبحانه وتعالى هذه العواطف الثلاث والشفقة الرؤوفة الجزئية إلى مئات الألوف منها<sup>(١)</sup>.

وفي السياق ذاته يقول مُعبّرًا عن تحويل المولى عزّ وجل "محنة النفي" إلى "رحمة للتدبير":  
"بينما كنت مُعزلاً في مغارة أحد الجبال، وقد طلقتُ السياسة وتجرّدتُ عن الدنيا مُنشدّاً بأمرٍ آخري، أخرجني أهلُ الدنيا من هناك ونفوني ظلماً وعدواناً. فجعل الخالق الرحيم الحكيم هذا النفي لي رحمة، إذ حوّل ذلك الانزواء في الجبل الذي كان مُعرضاً لعوامل تُخلُّ بالإخلاص والأمان إلى خلوة في جبال (بارلا) يُحيط بها الأمن والاطمئنان والإخلاص"<sup>(٢)</sup>.  
ففي محيط هذه الغربة التي تحوّلت بفضل الله تعالى وبنقة النورسي إلى منّة ونعمة سطرّ الأستاذ بكلمات من نور كتابه "الكلمات" الذي يصفه بـ "الأنوار القرآنية"<sup>(٣)</sup>. فالنور والرحمة عنده سواء:  
"إنّ أهم حقيقة في الكون وأتم ماهية فيه هي: الوجود، الحياة، النور، الرحمة. وإنّ هذه الأربعة متوجّهة مباشرة ودون وسائط وحُجب إلى القدرة الإلهية ومشيتها الخاصة، بينما تحُجب الأسباب الظاهرة في المصنوعات الإلهية الأخرى تصرفَ القدرة الإلهية، وتسنُر القوانين المطردة والقواعد الثابتة - إلى حدّ ما - الإرادة الإلهية ومشيتها، إلا أن تلك الحُجب والأستار لم

(١) قارن بما ورد في: كليات رسائل النور: الملاحق، ملحق أميرداغ-٢، ص ٣٦٢ - ٣٦٤. وسيرة ذاتية، ص ٥٢ - ٥٤.

(٢) المكتوبات، ص ٥٨. كما خصّص المسألين الأولى والثانية من الشعاع الحادي عشر للحديث عن ثمار تجربة السجن في دنيزلي، وتحوّله إلى "مدرسة يوسُفية" باعتبار أن يرشّف عليه السلام هو "قدوة المسجونين". قارن بـ الشعاعات، ص ٢٢٦ - ٢٣٢.

(١) المصدر السابق، ص ٥٩.

توضع أمام: الحياة، والنور، والرحمة؛ لعدم جريان حكمة وجودها في تلك الأمور<sup>(١)</sup>.  
 فالحياة والرحمة أهم حقيقتين في الوجود، كما أن الغيث منشأ الحياة مدار الرحمة؛ بل هو عين الرحمة لأن مصدره "الرحمة الإلهية الخاصة بمشيئتها الخاصة". لذا "توجه تلك الحقيقة الحياتية الجامعة بجميع دقائقها ولطائفها إلى إرادة الله الخاصة، ورحمته الخاصة، ومشيئته الخاصة"<sup>(٢)</sup>. وإذا كانت مسالك "التربية الروحية"، أو الترقّي في مدارج السالكين، محصورة - بحسب النورسي - في خطوات أو طرق أربعة هي: العجز - الشكر - الشفقة - التفكر، والتي استفادها من فيض القرآن الكريم؛ فإن "الرحمة" تعدُّ بمثابة المدار بالنسبة لهذه المسالك الأربعة، فجميعها توصل إلى أسماء الله الحسنى: "الرحمن"، "الرحيم"، "الحكيم":

■ فالعجز كالعشق طريق موصل إلى الله، بل هو أقرب وأسلم إذ يوصل إلى "المحبوبية" بطريق "العبودية". والفقر مثله يوصل إلى اسم الله "الرحمن"، وكذلك الشفقة توصل إلى اسم الله "الرحيم". أما التفكر فيوصل السالك إلى اسم الله "الحكيم". وقد كان للنورسي في حياته حظاً من تجليات "أسماء الله الحسنى" حيث نال "من خزينة حقائق القرآن الكريم حقائق عظيمة ومعارف جلييلة، بحظوته بتجليات اسم الله "النور"، واسم الله "الحكيم"، وأظهر تلك الحقائق القرآنية إلى أنظار البشرية؛ تحدّثاً بنعمة الله عليه. وقد تخلّق بالأخلاق المحمديّة متجاوزاً برازخ النفس والهوى، حتّى برز في هذا العصر مثالا فريداً مجسّماً لمكارم الأخلاق"<sup>(١)</sup>.

■ أما الفقر؛ فيشعر الإنسان في نفسه "قصوراً بلا نهاية، وعجزاً بلا غاية، وفقراً بلا انتهاء، واحتياجاً بلا حدّ، وآمالاً بلا عدّ، فكما أودع فيها الجوع والعطش لمعرفة لذة نعمته تعالى، كذلك ركبت من القصور والفقر والعجز والاحتياج؛ لتنظر بمرصاد قصورها إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرها إلى غناه ورحمته"<sup>(٢)</sup>. فالرحمة الإلهية الربانية الواسعة مقرونة في رأي النورسي بأن "يُظهِر العبد حاجاته الخاصة، وحاجات جميع المخلوقات وفقراً بلسان السؤال والدعاء، وأن يُعلن إحسان ربّه وآلائه العميمة

(١) اللغات، اللعة السادسة عشرة، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٣.

(١) سيرة ذاتية، ص ١٥ (من تقديم الأستاذ مصطفى صونغور).

(٢) المشنوي العربي النوري، ص ٣٦٠.

بالشُّكر والشَّاء والحمد بقوله: الحمد لله" (١).

■ أمَّا الشَّفقة؛ فهي أَلطفُ تجلّيات الرِّحمة الإلهية وأجملها وأطيبها وأحلاها، كما أنّها "إكسيرٌ نورانيٌّ"، وهي أنفذُ من العشق بكثير، وهي أسرعُ وسيلةً للوصول إلى الحقِّ تبارك وتعالى... تربطُ القلبَ بالله سبحانه ليوصلَ صاحبه إلى الله جلَّ وعلا بأقصر طريقٍ وأصنّفى شكلٍ" (٢). ولهذا كله ربط النورسي بينها وبين كل من: المحبّة والرِّحمة، حيث قال: "فهناك شفقةٌ مقدّسةٌ مُطلقةٌ، ومحبّةٌ مقدّسةٌ مُطلقةٌ تليقان به سبحانه، وتلائمان غناه المطلق وتعالیه وتقديسه، وتوافقان كماله المطلق. ثمَّ إنّ هناك شوقاً مقدّساً مُطلقاً يليق به آتٍ من تلك الشَّفقة المقدّسة والمحبّة المقدّسة... ثمَّ إنّ الرِّحمة المطلقة النابعة من تلك اللذة المقدّسة، وما ينشأ من المخلوقات قاطبة من رضى عام وكمالٍ شامل من انطلاق استعداداتها من القوّة إلى الفعل وتكاملها ضمن فعالية القدرة، فما ينشأ من كلّ هذا... يليقُ ويخصُّ الرِّحمن الرِّحيم سبحانه" (٣). كما طالع اسم "الرِّحيم" بواسطتها: "وإذا بالإيمان يمنحني نظّارة شاهدتُ من خلالها طلوعَ اسم (الرِّحيم) من برج الشَّفقة، ينشر أضواءه الرّاهية الجميلة، حتّى حوّل ذلك العالمَ الحزّين إلى عالمٍ بهيج" (٤).

وبالعودة إلى الحديث عن مفهوم "العمل الإيجابي البناء"، فإننا نلاحظ تأكيد النورسي على هذا المنحى من خلال ربطه بشبكة "المفاهيم المُفتاحيّة" الدّالة على "مركزيّة التّربية الرّوحيّة" في فكره. وليس أدلّ على ذلك مما قاله عند تفسيره لآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣): من أنّ الشعور "الإيجابي يتّبع بنمو الشَّفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التّعاون والتّعارف. أمّا السّليبي فهو الذي ينشأ من الحرص... الذي يُسبّب التّناكر والتّعاند. والإسلامُ يرفضُ هذا الأخير" (١).

(١) الكلمات، الكلمة التاسعة، ص ٣٩.

(٢) المكتوبات، المكتوب السابع عشر، ص ١٠١.

(٣) المكتوبات، المكتوب الثامن عشر، ص ١١١.

(٤) صقيل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٥٤. كما يعد الشفقة من بين القوى الخمسة التي تتمركز في قلب الشخصية المعنوية للعالم الإسلامي، ويدعوها بـ "الشهامة الإيمانية المجهزة بالشفقة والرأفة". نفسه، ص ٤٦٨.

(١) صقيل الإسلام، السانحات، ص ٣١٠ - ٣١١.

كما يطلب منا جميعاً أن ننظر إلى أُلطاف آثَار الرَّحْمَةِ الإلهية؛ وَيَقْصِدُ بِهَا كَلًّا مِنْ: الْحَبَّةِ، وَالشَّفَقَةِ، وَالْعَشَقِ، وَكَيْفَ أَنْ الْمَجْرَانِ الْأَبَدِيَّ لَا يُعَادِلُ الْحَبَّةَ وَلَا يُوَازِيهَا. (١) وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعُدُّ بِنَظَرِهِ أَعْظَمَ وَسِيْلَةً تَتَوَلَّدُ مِنْهَا مَظَاهِرُ شَفَقَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى بَنِي جِنْسِهِ، وَأَنْ أْبْلَغَ مِثَالٍ لَهَا، وَأَفْضَلَ مَنْ يُمَثِّلُهَا هُوَ الَّذِي سَمِّيَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وَمَا بَيْنَ دَائِرَتَيْ الرَّبُوبِيَّةِ وَالنُّبُوَّةِ يَتَحَرَّكُ مَقْصِدُ "التَّفَكُّرِ الْإِيمَانِي" الْمَوْصَلِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالَّذِي امْتَرَجَ فِيهِ التُّورَسِي بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ طِبْلَةً حَيَاتِهِ وَصَوْلًا إِلَى تَجَلِّيِ اسْمِ "الْحَكِيمِ" فِيهِ رُوحًا، وَقَلْبًا، وَعَقْلًا. وَهَكَذَا يَقُودُ الْعَجْزُ السَّالِكَ إِلَى الْمَحْبُوبِيَّةِ بِطَرِيقِ الْعِبُودِيَّةِ، وَيَقُودُ الْفَقْرُ الْمُرِيدَ إِلَى اسْمِ اللَّهِ "الرَّحْمَنِ"، كَمَا تُوصِّلُهُ الشَّفَقَةُ إِلَى اسْمِ اللَّهِ "الرَّحِيمِ"، وَأَخِيرًا يَصِلُ بِوَاسِطَةِ التَّفَكُّرِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ "الْحَكِيمِ". وَكُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى السَّالِكَ أَوْ الْمُرِيدِ فِي حُدُودِ نَفْسِهِ وَحَسَبِ، وَلَيْسَ مُنْفَصِلًا عَنِ الْأَبْعَادِ الْوِظَافِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تُرَافِقُ مَسِيرَةَ التَّرَقِّي الرَّوْحِيِّ، وَتَكُونُ ثَمَارًا لَهَا.

وهذه الخطوات الأربعة: العجز، والفقْر، والشَّفَقَةُ، والتَّفَكُّرُ، تصدر عن منابع قرآنية أربعة (٢): أَوْلَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)، وَثَانِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩)، وَثَالِثُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩)، وَأَخْرَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨).

(١) صَقِيلُ الْإِسْلَامِ، مَحَاكِمَاتُ عَقْلِيَّةٌ، ص ١٥٠.

(٢) قَارَنَ بِمَا وَرَدَ فِي: الْمَكْتُوبَاتِ، الْمَكْتُوبِ الْتَاسِعِ وَالْعِشْرُونَ، ص ٥٦٤ - ٥٦٦.